محاضرات في البلاغة العربية

النشأة والمؤثرات ودقة المصطلح البلاغي

للمرحلـــــة الأولـــــى / قســـــم اللغـــــة العربيـــــة كليـــــة التربيـــــة القرنـــــة (٢٠١٧-٢٠١٨)

اعداد الدكتور مرتضى الشاوي

المحاضرة الاولى

مدخل – في طبيعة تدريس البلاغة العربية

أهداف تدريس البلاغة .

يسعى تدريس البلاغة العربية إلى تحقيق الأهداف الآتية :

١- أن يقف الطالب على أوجه إعجاز القرآن الكريم ، ويدرك ما فيه من خصائص البيان ويفهم براعة أسلوبه .
٢- أن يفهم الطالب النصوص الأدبية فهماً سليماً يكشف له عما فيها من روعة الخيال وبراعة التصوير ويدرك سرّ جمالها .
٣- أن يعرف الطالب الأسس التي تقوم عليها بلاغة الكلام من حيث الوضوح ، القوة ، المناسبة .

أسس تدريس البلاغة :

هناك مجموعة من الأسس ينبغي مراعاتها عند تدريس البلاغة منها :

١- إن البلاغة فطرية في الكلام نلمح صورها في الأحاديث العادية وتحقق الفوائد منها أثارة شوق وانتباه الطالب للأساليب البلاغية وسرعة الوصول إلى ما نريد في يسر وسهولة .
٢- البلاغة فن أدبي تنمو من خلاله وتكتسب البقاء منه وتمارس التطورات اللغوية في المقام الأول كما أنّها علم تطبيقي يتمثل في القواعد والقوانين التي يتم التوصل إليها من خلال الأساليب الأدبية .

نشأة البلاغة

انطلق العرب القدماء في درسهم اللغوي للفصاحة والبلاغة من مفهوم تنظيري ذوقي ، ومن ثم مارسوه تطبيقاً عملياً في الكلمة المفردة والمؤلفة .

وحين نشأت نظرات بلاغية فطرية في العصر الجاهلي ثم تطورت في العصور التالية كان النص وحده صاحب السيادة في التحليل فتوقفوا عند الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية .

وأدركوا أنّ هذه الكلمة أفصح من تلك في هذه الموضع دون ذلك ، علماً أنّ العرب يتميزون بسليقة فطرية ذات قدرة عالية على براعة الكلم حتى قال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) : (أنا أعربكم ، أنا

من قريش ، ولساني لسان بني سعد) أي أفصحكم ، وقال عليه السلام : (أُعطيتُ جوامع الكلم واُختصر لي الكلام اختصاراً)

لعل الدرس البلاغي للفصاحة والبلاغة وغيرهما يدين بالفضل للدراسات القرآنية ... واللغوية في وقت واحد ، ومن ثم تطور على يد من تأثر بالثقافة اليونانية ... وانتهى إلى تقعيد سافر .

هذا التأثير الأخير ذهب ببهاء الذوق العربي والنقدي واللغوي المرهف والواعي الذي سما به الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) بينما اضرّ به كثيراً لبن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) ، ومن حذا حذوه كالسكاكي في تقنينه بقواعد صارمة .

البلاغة ... منزلتها بين العلوم العربية

إنّ البلاغة فن من فنون اللغة العربية لا يستغني عنها أديب أو ناقد ، فالأول : يعرف بها سبل القول وطرائق التعبير .

والثاني : يميز بها رائع الكلام وجميله من ساقطه ورديئه .

وتمثل البلاغة روح اللغة ، بل علم من علوم اللغة ، بها وبالنقد يقاس الأدب ويميز حسنه من رديئه وجميله من قبيحه وهي روح الأدب كما يقال .

والبلاغة من العلوم العربية الإسلامية وقد خدمت اللغة خدمة عظيمة وأبرزت ما في القرآن من وجوه الجمال وأوضحت سر الإعجاز وذلك بالبحث في أسلوبه وطريقة أدائه المعاني وبموازنته بأساليب العرب البليغة .

والبلاغة ليست مقصورة على العرب ولا على أمة دون امة وإنما هي سمة عظيمة القدر في اللغات التي بلغت درجة كبيرة في التطور والارتقاء .

مكانة الدرس البلاغي

درس البلاغة هو درس جمالي يبحث في التعبير الأدبي وفي أسباب قوته ووضوحه وجماله ، كما يبحث في مطابقة الأسلوب لمقتضيات الأحوال ، وملاءمته الموضوع ومعانيه ، والأحوال المخاطبين .

وانّ هذا الدرس كان قد استقل واتضحت معالمه ، وتميزت مباحثه منذ زمن طويل ، بل لعل (البلاغة) كانت أسبق فروع الدراسات الأدبية إلى التميز والاستقلال .

وتتابعت جهود رجالها ، متى تكامل الدرس البلاغي أو كاد وكانت البلاغة مع ذلك وثيقة الصلة بالنقد الأدبي سواء في نشأتها الأولى أو في كونها أصبحت مقياساً من أهمّ المقاييس التي تقدر على أساسها جودة العمل الأدبي وفنيته وجماله .

قِدَم البلاغة العربية – والاستدلال عليه :

هل البلاغة العربية قديمة ؟ ، وكيف نستدل عليها ؟

يمكن الاستدلال على أنّ العرب عرفوا كثيراً من الأحكام النقدية والقضايا البلاغية قبل الإسلام بأمرين :

الأول : عقلي لا يمكن إنكار وهو أنّه لا يصدق أن الشعر وصل إلى ما وصل إليه فذلك العصر .

وانّ الخطابة بلغت ذروتها ، وانّ اللغة أخذت صورتها من غير أن تكون هنالك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والخطباء وساروا عليها فيما نظموا وقالوا .

والثاني : نقلي وهو ما آثر عنهم وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم .

وقد استدل الجاحظ من ألفاظ العيي والبكيء ، والحصر والمفحم والخطل والمسهب على أنّ العرب قبل الإسلام عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة .

وما تقدم نستدل على أنّ البلاغة عند العرب قديمة قدم الأدب بشعره ونثره ، وقد تكون المصطلحات البلاغية والنقدية غير معروفة في ذلك العصر، لكن الفنون البلاغية التي وردت في الشعر تشهد أنّ العرب كانوا يعرفون الأساليب المختلفة والصور المتعددة التي تزيد كلامهم جمالاً .

أسباب نشأة البحث البلاغي

١- إنّ العرب أمة مفطورة على البلاغة وقد رفع القرآن الكريم البلاغة فوق منزلتها وفي بحث العرب عن خصائص البلاغة العربية فهم يبحثون عن شي عزيز لديهم فيه الغلبة والتفوق .
٢- إنّ العرب نشأوا على تذوق الأسلوب ونقده والفطنة لجيده ورديئه وكان هذه النقد هو أساس علم البلاغة .
٣- فساد الذوق وانحراف الملكات وتضاؤل الطبع في نفوس العرب بعد اتساع الفتوحات الإسلامية وامتزاج العرب بالشعوب الأخرى فشاع اللحن فكان من البواعث على تدوين أصول البلاغة العربية لتكون ميزانا للكلام .
٤- الرغبة في فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم وإقامة الأدلة العلمية في هذا الإعجاز .
٥- استثقال نار الجل في صدر الدولة العباسية ردحاً من الزمن بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام في بيان وجه إعجاز القرآن .
٦- قيام سوق نافعة لمناظرة بين أئمة اللغة والنحو في الحفاظ على أساليب العرب وأوضاعها من جانب والأدباء والشعراء أنصار الشعر المحدث من جانب آخر .
٧- الخلاف الذي نشب بين أئمة الأدب وعلمائها في بيان وجوه تحسين الكلام حتى يرقى في سلم البلاغة وينال قسطه من الفصاحة وتناقض أرائهم في ذلك .

أهداف البحث البلاغي

ونتيجة لهذه الأسباب فقد برزت أهداف محددة لنشؤ البحث البلاغي عند العرب ، يمكن تلخيصها بما ياتي :

أولاً : الهدف الديني

وهو خدمة القران الكريم لكي يبرهنوا على إعجازه ويفهموا آياته وأسلوبه ليستنبطوا الأحكام منه اتجهوا إلى البلاغة باحثين فنونها موضحين أقسامها لتكون لهم عوناً في فهم القرآن ، وكان هذه من أهمّ الأهداف التي دفعت إلى البحث والتأليف فيها .

ثانياً : الهدف التعليمي

وهو تعليم الناشئة اللغة العربية ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب بأمم شتى وأدّى ذلك الاتصال إلى فساد اللغة ودخول اللحن فيها .

يضاف إلى ذلك أنّ كثيراً من المسلمين كانوا بحاجة إلى تعلم العربية وبلاغتها ليفهموا القرآن الكريم وليعيشوا في ظل دولة لغتها العربية فلكي يتعلم العربي الناشئ في بيئة امتزجت فيها اللغات بلغته ويصبح قادراً على التعبير الحسن والنظم الرائق وإنشاء الرسائل ولكي يتعلم المسلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها .

كان عليهم جميعاً أن يتقنوا العربية ، ولا يتم ذلك الإتقان إلا بمعرفة ألفاظها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها والبلاغة أحد السبل التي توصل إلى هذه الغاية وتخدمها .

ثالثاً : الغرض النقدي

وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل والبلاغة تعين الناقد كثيرا لأنّها تقدم له الأدلة التي تعينه على الفهم والحكم ، ولذلك نجد أنّ القدماء يعنون عناية كبيرة ويألفون الكتب بها .

المؤثرات :

هي الطوائف التي اشتغلت بالبحث البلاغي أو الفئات المؤثرة في نشأة وتطور الدرس البلاغي وهي :

أولاً : اللغويون والنحاة

كان للغويين والنحاة اثر بارز في مد تيار البلاغة بينابيع من دراساتهم في اللغة وبحثهم في الألفاظ ، وقد ذكروا :

١- أسباب الخفة والثقل

٢- عوامل التنافر والتلاؤم التي تفضي إلى فصاحة الألفاظ أو غثاثتها فقد أفادت بذلك كلّه الدراسات البلاغية .

٣- كان لهم دور في نشأة هذا العلم وتطور مباحثه وجهوا اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى مسائل اللغة ولكنهم تناولوا النصوص التي تهيأت لهم وحاولوا أن يصلوا إلى نواحي الجمال أو القبح فيها .

٤- وقد تناولوا بعض مسائل البلاغ والنقد الأدبي وان لم يكن تناولهم لها على نحو ما نجد عند البلاغيين المتأخرين .

وأسهم اللغويون والنحاة البصريون في الدرس البلاغي ومنهم : الخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٥هـ ، وسيبويه ت ١٨٠هـ ، وخلف الأحمر ت ١٨٠هـ ، ومؤرج السدوسي ت ١٩٥هـ ، وقطرب ت ٢٠٦ هـ ، وأبو عبيدة ت ٢١٦ هـ ، والأصمعي ت ٢١٦ هـ ، وأبو حاتم السجستاني ت ٢٥٠ هـ ، والمبرد ت ٢٨٥هـ .

ومن جهود اللغويين في ذلك كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى ت ٢١٠هـ .

لم تكن كلمة (مجاز) تعني المصطلح البلاغي المعروف ، وإنما كان يراد بها التفسير أو التأويل .

لكن ليس معنى ذلك إنّ كتاب مجاز القرآن لم يكن إلا بياناً لمعاني الآيات فحسب ، بل تضمن أثناء التفسير بعض المسائل التي تعد من البلاغة .

ففي قوله :

(وسأل القرية التي كنا فيها والعِير التي أقبلنا فيها)

يتحدث عن المجاز بالمعنى البلاغي المعروف ويشير إلى ما فيه من الحذف ويقول: " فهذا محذوف فيه ضمير مجازه وسل أهل القرية ومن في العير " كما يشير إلى ما أطلق عليه الإلتفات وذلك في قوله " ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد وقال : (ألم ، ذلك الكتاب) ، مجازه : الم هذا القرآن . ومن مجاز ما جاءت مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب . قال الله : (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة)

كما أنّ علماء اللغة والنحو لهم أثر واضح في البلاغة من ذلك : أرى أنّ عبد الله بن المعتز صاحب كتاب (البديع) يذكر الخليل بن احمد ت ١٧٥هـ في صدر حديثه عن التجنيس والمطابقة ولعله كان ينقل عن الخليل المعنى اللغوي الأصلي للتجنيس والمطابقة .

كما أنّ سيبويه ت ١٨٠هـ يعرض في كتابه بعض الخصائص الأسلوبية التي عني بها فيما بعد علم المعاني من مثل التقدم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف ومن حين إلى آخر نرى إشارات إلى المسائل البيانية في الكتاب .

ثانياً : المفسرون والأصوليون (الفقهاء)

للمفسرين والأصوليين إثرهم الكبير في نشأة وتطور البلاغة ويرتبط أثرهم بأثر القرآن الكريم الذي نزل حجة بلاغية كبرى ومعجزة أدبية عظمى وكان تأثير القرآن واضحاً في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية وكانت آياته البينات البلاغي الرفيع .

وكانت إحدى الوسائل في كشف أسرار الإعجاز وتبيان ما في الآيات البينات من روعة وجمال وقد وضع المفسرون لكتبهم مقدمات بلاغية تحدثوا فيها عن البلاغة وفنونها . كذلك كان للفقهاء والمفسرين أثر في تاريخ البلاغة ونشأتها ، فالفقهاء اعتمدوا في استنباط الأحكام الدينية وأصول التشريع الإسلامي على نصوص من الكتاب والسنة ، وهذا بدوره أدى بهم إلى النظر في أساليب القرآن البيانية ، والتأمل في ألفاظه ودلالاتها وفي طرائق التعبير وحراميها .

وكان الإمام الشافعي محمد بن إدريس ت ٣٠٤ هـ أول من كتب في أصول الفقه وله كتاب (الأم) ذكر حقيقة البيان العربي وقسمّه إلى بيان القرآن وبيان السنة للقرآن والبيان بالرأي وهو القياس ثم جاء الفقهاء فتوسعوا في البحوث اللفظية البلاغية .

كذلك أسهم المفسرون في تطوير البلاغة وذلك بالتعرض عند تفسير آيات القرآن إلى إبراز جانبها البلاغي لفظاً ومعنى وأسلوباً .

ومن أهمّ التفاسير البلاغية كتاب (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) – جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨ هـ .

ثالثاً : الشعراء والكتاب

كان الشعراء منذ الجاهلية يعنون بالقول وبجودة أشعارهم وينقحونها وقد دلت الملاحظات على أنّهم أصحاب ذوق ومعرفة بجيد الشعر ورديئه ومن الشعراء الذين كان لهم السبق في الدراسات البلاغية عبد الله بن المعتز الذي ألّف كتاب البديع الذي فتح البحث والتأليف في البلاغة .

ومن الشعراء الذين أغنوا البلاغة : الشريف الرضي ت ٤٠٦هـ ، وابن رشيق القيرواني ت ٤٦٣هـ ، وابن سنان الخفاجي ت ٤٦٦هـ ، وأسامة بن منقذ ت ٥٨٤هـ ، وابن أبي الإصبع المصري ت ٦٥٤ هـ .

وكذلك كان للكتاب الدور الكبير في نشأة الدرس البلاغي ولعل أهمّ من أثر في البلاغة من الكتّاب :

ابن المقفع ت ١٤٣هـ ، والجاحظ ت ٢٥٥هـ ، وقدامة بن جعفر ت ٣٣٧ هـ ، وابن وهب الكاتب ، وأبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ ، وابن نافيا البغدادي ت ٤٨٥هـ ، وضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧هـ، وشهاب الدين محمود الحلبي ت ٧٢٥هـ .

ويعد أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ من أكثر الكتاب تأثيراً في البلاغة ، وذلك لما ذكره في كتبه لا سيما (البيان والتبيين) و(الحيوان) من فنون بلاغية وأساليب بليغة وأصبحت دراسته لمسائلها أساساً للبلاغيين .

ونظراً للجهود الكبيرة التي بذلها الجاحظ في إرساء دعائم الدرس البلاغي العربي لا بُدّ من الإشارة إلى أهمّ تلك الجهود .

والتي يمكن تلخيصها بما يأتي :

١- جمع ما قيل في البلاغة وحفظها من الضياع
٢- انتبه إلى ما لدى الأمم الأخرى من بلاغة ونقل بعض الأقوال عنهم .
٣- ذكر الكثير من المصطلحات البلاغية التي أصبحت مرجعاً للبلاغيين فيما بعد .
٤- أشار إلى بعض الفنون وذلك بذكر الأمثلة من غير أن يضع لها المصطلحات
٥- اعتنى بالأساليب البلاغية أكثر من عنايته بالقواعد والتقسيمات
٦- اهتم بأسلوب القران الكريم وما في آياته من تشبيهات ومجازات
٧- مهد للبلاغيين والنقاد البحث في السرقة والموازنة بين الكلام ومعرفة تطور المعاني .
٨- ربط بين المعنى واللفظ ، ومقتضى الحال ، وقد أصبحت هذه القاعدة تعريفا للبلاغة فقالوا (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) .

رابعاً : الفلاسفة والمتكلمون :

أثر المتكلمون في نشأة البلاغة وتطورها . والمتكلمون هم أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقران الكريم وتدليلهم على إعجازه واستنباط العقائد منه والدفاع دونه وقد ظهر أثرهم مبكراً . وكان لاهتمام علماء الكلام بالبلاغة أكثر من سبب واحد منها :

١- قضية إعجاز القرآن ، فقد كانت هذه القضية من أهمّ القضايا التي عني بها علم الكلام وارتباطها بالبلاغة متأت من أنّ أحد أهمّ وجوه إعجاز القرآن هو الوجه البلاغي .
٢- إيمان المعتزلة وهم ابرز المتكلمين بأن الشعر العربي وهو مجال العربية الرئيس مصدر من مصادر المعرفة الكبرى ووعاء لها ، ومن المتكلمين الذين شاركوا في البلاغة : واصل بن عطاء ت ١٣١هـ ، عمر بن عبيد ت ١٤٤هـ ، وسهل بن هارون ت ١٧٣هـ ، والجاحظ الأديب المعتزلي ت ٢٥٥هـ .
٣- وقد طبع هؤلاء وغيرهم البلاغة بطابع عقلي يعتمد على الاستدلال والدقة في التحديد والتقسيم .

وألّف بعض الفلاسفة المسلمين في البلاغة والنقد ولكنهم كانوا يغرقون من بحر أرسطو طاليس ، ويلخصون كتابيه (الشعر) و (الخطابة) فقد اختصر الكندي ت ٢٠٢هـ كتب الشعر .

ولخصه الفارابي ت ٣٣٩هـ .

ومن الفلاسفة الآخرين الذين عنوا في البلاغة على هذا المنوال ابن سينا ت ٤٢٨هـ وابن الهيثم ت ٤٣٠ هـ . وابن رشيق ت ٥٩٥هـ .

إنّ البلاغة العربية تأثرت بالمنطق ودراسته ، ولكن في غير دور نشأتها ، بل فيما تلا هذا الدور ، وبالتحديد في بداية القرن الرابع الهجري وعلى يد قدامة بن جعفر فهو أول من تأثر بصناعته المنطقية في دراسة النقد والبلاغة في كتابه (نقد الشعر) .

من مبادئهم :

١- لقد اعتقد أولئك المتكلمون قواعد الإيمان ، وأقروا بصحتها ، وأضرابها ، ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليها ، فهم يبرهنون عليها عقليا كما برهن القرآن عليها وجدانيا .
٢- وقد اعتمدوا الجدل طريقهم للدفاع عن عقيدتهم ورفض حجج خصومهم أياً كانوا .
٣- كما اتخذوا من الألفاظ وفهم دلالاتها وعرضها على ألوان شتى وسيلتهم إلى الإقناع والغلبة على معارضيهم .
٤- ومن المعتزلة من كان يبدأ جدله بالشك لينتهي إلى الاقتناع أو الإقناع .

وكان القرآن والسنة مرجع المتكلمين في جدلهم .

وقد اشتهر زعماؤهم بالخطابة والبلاغة ولهذا كانوا يتخيرون الألفاظ للمعاني ويتوسعون في الاشتقاق اللغوي .

وهكذا عني المتكلمون بفهم القرآن وما فيه من فنون التشبيه والمجاز والبديع . وجادلوا في تعبيراته ، وأداهم هذا الجدل إلى التفنن اللفظي والبحث عن القضايا البلاغية .

وليس من قبيل المصادفة أن نجد أول صحيفة مكتوبة في البلاغة لأحد رجال المعتزلة (بشر بن المعتمر ت ٢١٠هـ) وفي هذه الصحيفة نجد بشراً :

١- يحدثنا عن المعاني وما يناسبها من الألفاظ . كما يحدثنا عن اللفظ وما يجب أن يكون عليه من الرشاقة والعذوبة والخفة .

٢- ونجد فيها حديثاً عن ضرورة موافقة الكلام لمن يوجه إليهم من جهة ومناسبته لموضوعه من جهة أخرى .

أو ما أطلق عليه البلاغيون مراعاة الكلام لمقتضى الحال . ومن الأسماء اللامعة :

أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ)الذي عني بالبيان وطرق بعض مسائل البلاغة في تراثه العظيم ، وعلي بن عيسى الرماني (٣٨٦هـ) النكت في إعجاز القرآن ، جار الله الزمخشري – الكشاف الذي قام على أسس بلاغية .

هل كانت نشأة علم البلاغة نشأة عربية خالصة ؟

الجواب : وجدت لها بذور أولى في العصر الجاهلي ، وان هذه البذور نمّاها الإسلام .

ونمّاها البحث والجدل حول القرآن وإعجازه ، أعني حول تفهم مواضع الإعجاز في القرآن وتذوق بلاغته .

كما نماها أيضاً ظهور الفرق الإسلامية المتعددة .

هذه الفرق التي راحت تعنى بالبلاغة وفنونها من اجل الاستقامة بها والإفادة منها في الاستدلال والبرهنة على آرائها وأفكارها الخاصة . ولهذا ظلت البلاغة في دور نشأتها على الإجمال عربية خالصة تستمد عناصر مقوماتها من الثقافة العربية وما يتصل بها .

وإذا كان قد تسرب إليها بعض عناصر بلاغية أجنبية من بلاغة الهند والفرس واليونان فإن ذلك كان في الأدوار التي تلت دور نشأتها .

أعني في أدوار نموها وتقعيدها في العصر العباسي ، عندما أخذت حركة النقل والترجمة من الثقافات والآداب الأجنبية تنشط على نطاق واسع برعاية الدولة أو رعاية الخلفاء العباسين من أمثال المنصور والرشيد والمأمون .

المحاضرة الثانية / أولى / البلاغة

الاتجاهات البلاغية (المدارس) وخصائصها

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسي الأول حتى نجد أن الملاحظات البلاغية قد اتسعت نظراً لتطور النثر والشعر بسبب تطور الحياة العقلية والحضارية وظهور طائفتين من المعلمين : عنيت أحداهما باللغة والشعر وهي (المدرسة الأدبية) ،

وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وأحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته وهي (المدرسة الكلامية) أو كما يسميها السيوطي (طريقة العرب البلغاء وطريقة العجم وأهل الفلسفة) .

ولكل من هاتين المدرستين خصائص متميزة :

أولاً : أهمّ خصائص المدرسة الأدبية :

١- إنّ رواد هذه المدرسة لم يهتموا بالتحديد والتقسيم اهتماماً كبيرا ، وكذلك الإقلال من البحث في التعاريف والقواعد والأقسام .
٢- كما لم يهتموا باقتباس المنطق والفلسفة في دراستهم البلاغية .
٣- وإنما عولوا على الذوق السليم والإحساس الرقيق في تناول النص والنظر إليه والحكم عليه واستعمال المقاييس الفنية في الحكم على الأدب .
٤- تعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الأقسام وسلامة النظر المنطقي .
٥- شنّوا حرباً على الحدود والرسوم ومصطلحات الفلسفة والمنطق وإقحامها في الأحكام النقدية والمصطلحات البلاغية .
٦- كما أكثر رجال هذه المدرسة إلى حدّ الإسراف من الأمثلة والشواهد وبخاصة في القرآن الكريم والأدب الرفيع .
٧- فإذا ما تعرضوا للقاعدة ذكروها بإيجاز
٨- معظم روادها من الأدباء والشعراء الذين كانوا في البيئات الغربية وفي المناطق الوسطى في العالم الإسلامي كالعراق ومصر والشام والمنطقة الغربية في شمال إفريقيا من رواد هذه المدرسة الجاحظ ، وابن سنان وعبد القاهر الجرجاني .
٩- وأهمّ الكتب التي تضمنت آثارها :

كتاب البديع لابن المعتز
كتاب الصناعتين للعسكري
سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي
أسرار البلاغة للجرجاني
البديع في نقد الشعر لابن منقذ
والمثل السائر والجامع الكبير لابن الأثير
وتحرير التعبير لابن أبي الإصبع

ثانياً : أهمّ خصائص المدرسة الكلامية :

١- اهتم أقطابها بالتعريفات والتحديدات الدقيقة والتقسيمات العقلية اهتماماً كبيراً ، فالتعريف عندهم ينبغي أن يكون جامعاً مانعاً .
٢- امتازت بالجدل والمناقشة والتحديد اللفظي والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المقررة .

٣- كما أكثروا من استعمال الألفاظ والمصطلحات المنطقية والفلسفية والكلامية في أثناء تناولهم الموضوعات البلاغية مما يبعدها من مرمى البلاغة وهو شيء كثير ومما لا علاقة له بالحث البلاغي .

٤- استعمال أساليب المتكلمين في بحث الموضوعات وحصرها .

٥- كما أنّهم كانوا يمثلون لها بأمثلة مصطنعة أو مقتطعة ، لا يربي الذوق ولا يحدث المتعة .

٦- وكان لديهم ميل إلى الدراسات الفلسفية والعلوم العقلية ويعود ذلك إلى قدم الدراسات الفلسفية والعلوم العقلية في التراث الفارسي .

٧- ادخل الكلاميون بعض مسائل الفلسفة والطبيعة الإلهية والخلقية كالكلام في الألوان والطعوم والحواس الإنسانية والوهم والخيال والحس المشترك .

٨- وشاعت هذه المدرسة في المناطق الشرقية من الدول الإسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتار وغيرهم مما كانت بلادهم في الأصل أعجمية وكانت خوارزم اكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة كالزمخشري والفخر الرازي وأبي الفتح المطرزي والسكاكي وسعد الدين التفتازاني.

٩- وفي أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي اتسعت الترجمة وأسست لها دار الحكمة . ومن أشهر المترجمين عبدالله بن المقفع ت ١٤٣هـ فقد ترجم عن الفارسية كتباً تاريخية مختلفة وأخرى أدبية وسياسية كما ترجم (كليلة ودمنة) وأجزاء من منطق أرسطو طاليس وأكبّ من السريان وغيرهم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي .

وأهمّ كتب هذه المدرسة :

نقد الشعر – قدامة بن جعفر

البرهان في وجوه البيان – ابن وهب الكاتب

دلائل الإعجاز – الجرجاني

نهاية الإيجاز – الرازي

مفتاح العلوم – السكاكي

تلخيص المفتاح والإيضاح – الخطيب القزويني

ثالثا : وهناك اتجاه يمزج خصائص الكلاميين من البلغاء وأولئك الأدباء حتى يكاد يشكل مدرسة واحدة .

وتلحظ هذا في كتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)

فنجد عبد القاهر في (أسرار البلاغة) بليغاً أديباً ويتمثل ذلك في :

١- حديثه عن قضية الإعجاز في هذا الكتاب

٢- الاعتماد على الحاسة الفنية وتمكين الذوق الأدبي

٣- الخلو من الأسلوب المنطقي الاستدلالي .

٤- التحليل الأدبي التفصيلي لما يعرض عليه من قضايا .

أما في كتاب (دلائل الإعجاز) فكان عبد القاهر بليغا كلامي الدرس :

١- فقد عني في هذه الكتاب بقضية إعجاز القرآن .
٢- واستخدم في مناقشة الجدل المنطقي .
٣- وأتى بالأدلة والبراهين .
٤- واتكأ على أسلوب الفلاسفة .

المحاضرة الثالثة / أولى / البلاغة

دقة المصطلحات

المصطلح البلاغي

هو المصطلح الذي تعارف عليه علماء البلاغة والمختصون والذي ظهر في كتاباتهم وأقوالهم بوضوح يستشف منها المتعلم والدارس معالم فنون البلاغة . ومن أهم المصطلحات .

مصطلح البلاغة

البلاغة في اللغة هي : الوصول إلى الشيء ، والانتهاء إليه من قولهم بلغت الغاية ، إذا انتهيت إليها ... والمبالغة في الشيء : الانتهاء .

وجاء في اللسان بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا وبلاغة: وصل وانتهى

والإبلاغ الإيصال ومنه قوله تعالى (فإذا بلغن اجلهن) الطلاق / ٢ ، أي قاربنه .

وسميت البلاغة بلاغة ، لأنّها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه .... والبلاغ وأيضاً هو التبليغ في قوله تعالى (هذا بلاغ الناس) إبراهيم / ٥٢ .

ويقال : بلغ الرجل بلاغة إذا صار بليغاً ، كما يقال : نبل نبالة إذا صار نبيلاً .

والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم فلهذا لا يجوز ان يسمى الله عز وجل بأنّه بليغ .

وفي الاصطلاح :

١- عرفها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (ت ٤١هـ): (إيضاح الملتبسات وكشف عوار الجهالات بأسهل ما يكون من العبارات)
٢- وعرفها الإمام الحسن المجتبى بن علي (عليهما السلام)(ت٥٠ هـ): (تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة)
٣- وعرفها الفراهيدي (ت٧٥ هـ) : (كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقاً ، ولفلك الحال وقعاً ، آخر كلامك مشابهاً ، وموارده لمصادره موازناً فافعل)

٤- وعرفها الإمام محمد الباقر (عليه السلام) (ت ١١٤هـ) : (تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ)

٥- وعرفها أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) : (كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن) .

٦- وعرفها السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) (هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشابه والمجاز والكناية على وجهها) .

٧- وعرفها القزويني (ت ٧٣٩ هـ) : (البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب) .

ومن التعريفات التي أوردها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) :

قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل .

وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام – واختيار الكلام .

وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة .

مصطلح البيان

ذكر ابن خلدون في مقدمة تاريخه المشهور عبارة (علوم اللسان العربي) وأطلقها على مجموعة تلك العلوم الأكثر مناسبة وأقوى دلالة على ما يراد منها ، وقد عدّها أركانا أربعة ، وهي :

علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب .

البيان لغة :

مادة البيان في أصل استعمالها عند أصحاب اللغة تدل على الانكشاف والوضوح ، قالوا ، بان الشيء ، يبين بياناً: أتضح ، فهو بيّن وأبان الشيء فهو مبين ، وابنته أنا ، أي أوضحته . واستبان الشيء : ظهر واستبنته أنا : عرفته . والتبيين : الإيضاح .

قال الله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)

وقال عبد الله بن رواحة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت فصاحته تنبيك بالخبر

وقد جاء في الحديث النبوي (إنّ من البيان لسحراً)

وهذا يدل على أنّ البيان من أقدم علوم البلاغة وكان هذا الاسم يطلق على ما يراد منها جميعا متأثراً في نشأته وتطوره إلى حد بعيد بالعامل الديني في خدمة العقيدة الإسلامية .

اهتم الجاحظ اهتماماً ملحوظاً بالبيان العربي حتى افرد كتاباً خاصاً سمّاه كتاب (البيان والتبيين) ويقصد به الوضوح والإيضاح أو الفهم والإفهام .

وقد عرفه بقوله (البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى)

ومرة أخرى بقوله : (البيان هو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي)

وهذا يدل على أنّ لفظة (البيان) في العصور الأولى كانت تطلق ويراد بها أحياناً الفصاحة أو البلاغة أو الخطابة أو البديع وتحت لفظة البيان كانت تبحث جميع قضايا البلاغة ثم بعد ذلك استقر في عصور متأخرة ليضم مباحث علم البيان وهو العلم الثاني لعلوم البلاغة ويشمل علم البيان التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة عن‌اد إبراز علوم البلاغة بمفهومها الموضوعي .

وما من شك في أنّ متأخري البلاغين عندما عرفوا علم البيان : (بأنه إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه) أو (بأنّه العلم الذي يبين طرق الدلالات على المعنى الواحد) كانوا الى حد ما متأثرين في تعريفهم لعلم البيان بتعريف الجاحظ له .

وقد أشار الجاحظ إلى أصناف الدلالات على المعاني وقد حصرها في خمسة أشياء :

١- الدلالة اللفظية
٢- الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب
٣- الدلالة بالخط وهي الكتابة بالقلم كما قال الله سبحانه وتعالى (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) (ن ، والقلم وما يسطرون) .
وقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله : قيدوا العلم بالكتاب أو الكتابة .
٤- الدلالة بالعقد : وهو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له حساب باليد .
٥- النصبة : وهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، يعني الدلالة في المواد الجامد ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة .
وأهمّ الدلالات في البيان العربي دلالة اللفظ والكتابة (القلم) .

مصطلح الفصاحة

تتضمن (الفصاحة) في أصلها اللغوي (فصح) أكثر من معنى :

البيان ، الفصاحة : البيان ، فصح الرجل فهو فصيح من قوم فصحاء ، ويأتي بمعنى البليغ : رجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ .

ويأتي بمعنى الذي يتلكم العربية . وفصح الأعجمي ، بالضم ، فصاحة : تكلم بالعربية وفهم عنه .

ويأتي بمعنى الصفاء ، فصح اللبن : ذهب اللبأ عنه ، وفصح اللبن إذا أخذت منه الرغوة .

والفصاحة في الكلام الاصطلاح : خلوصه من التعقيد اللفظي والمعنوي وفصاحة القرآن : كونه لفظا مستقلا عربيا مستعملا مؤدّي المعنى بوجه لا تعقيد فيه .نجد كل التعاريف تدور حول الإظهار والوضوح مع الخلو من التقيد .

والسؤال المطروح : هل من فرق بين الفصاحة والبلاغة ؟

قال بعضهم : إنّهما متعاقبان على معنى واحد .

وذهب اغلبهم إلى التفريق .

فقالوا : إنّ البلاغة من عوارض الألفاظ مع ملاءمة المعنى والبلاغة من عوارض المعنى وهو تكميل المعنى باللفظ الذي يفهمه ، فالبلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ .

يقال : معنى بليغ ولفظ فصيح .

مصطلح الاقتران عند الجاحظ

يدل مصطلح (الاقتران) على تآلف أصوات الحروف في بنية اللفظة الصوتية كما يدل على تآلف الألفاظ في السياق لذلك قسمه إلى قسمين :

اقتران الحروف واقتران الألفاظ ويتسع القسم الثاني في التحليل فيشمل اقتران أبيات الشعر وانسجامها .

وبهذه الصورة يكتسي المصطلح قدرة إجرائية متعاظمة تحيط بمكونات النص في سلم انتشاري يكون فيه المجموع في ذاته مفردا في غيره .

وهذه يعني أن الجاحظ عبر فكرة الاقتران قد أشار إلى مستويين :

المستوى الأول : مستوى التركيب : اقتران الألفاظ

إذ قال : (ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وان كان مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه . فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر + وليس قرب قبر حرب قفر

وهنا يشترط الجاحظ في فصاحة الكلمة سلامتها من تنافر الحروف ، وتجاور الحروف المتنافرة في الكلمة يؤدي إلى تعثر اللسان في النطق بها ، وهذا من يقلل من درجة فصاحتها .

البيت مجهول القائل ولتنافر لفظه نسبوه إلى بعض الجن .

المستوى الثاني : مستوى الألفاظ في تلاؤم الأصوات = الحروف .

قال الجاحظ (فهذا في اقتران الألفاظ . فأمّا في اقتران الحروف ، فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء والغين ، بتقديم ولا بتأخير .

والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال ، بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير) .

وتجنب التنافر في الكلمة يكون بملاحظة الحروف التي لا تتجاور والتفرقة بينها حتى يسهل النطق بها . والحروف التي تأبى الالتقاء والتجاور نطقا على أية حال بتقديم أو تأخير .

المحاضرة الرابعة / أولى / البلاغة

شروط الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي

يعدّ من أبرز العلماء البلاغيين الذين تناولوا الفصاحة في دراساتهم البلاغية ، وقد اعتمد عليها المتأخرون وساروا عليها وطوروها .

ذكرها ابن سنان الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة) .

تنقسم هذه الشروط إلى قسمين :

الأول : ما يوجد في اللفظة الواحدة من غير أن ينضم إليها شيء من ألفاظ تؤلف معه

والقسم الثاني : يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .

فأمّا الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :

١- أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج وإذا كان الحروف متقاربة المخارج تكون الكلمة غير فصيحة مثل مفردة (الهعخع) قد حكاها الخليل بن احمد الفراهيدي .

٢- أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها . مثل مفردة عذب ، وعذّب ، وعذابات ، وعذيب او مفردة عصن أو فنن .

لكن عندما تسمع (عسلوجاً) للدلالة على الغصن فالأول أحسن وأفضل .

وكذلك أغصان البان أحسن من (عساليج الشوحط) في السمع .

وكذلك قول الشاعر أبو الطيب المتنبي :

إذا سارت الأحداج فوق نباته + تفاوح مسك الغانيات ورنده

إنّ مفردة (تفاوح) في غاية الحسن .

ومثال ما يكره قول المتنبي :

مبارك الاسم أعز اللقب + كريم الجرشّى شريف النسب

في الجرشى تأليف يكرهه السمع .

٣- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية .

ومن ذلك قول أبو علقمة النحوي (وما لكم تتكأكؤون عليّ تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني) . في الكلمات غرابة لفظية .

٤- أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية

كقول أبي تمام :

جليت والموت مبدِ حرّ صفحته + وقد تفرعن في أفعاله الأجل

(تفرعن) مشتق من اسم فرعون وهو من ألفاظ العامة ، وعادتهم أن يقولوا : تفرعن عن فلان ، إذا وصفوه بالجبرية .

٥- أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير الشاذة .

كل ما ينكره أهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة إذا كانت غير عربية أو عربية في غير محلها .

كقول احد الشعراء :

وجناح مقصوص تحيّف ريشه + ريب الزمان تحيّف المقراض

استعمل المقراض للدلالة على آلة القص وهو غير عربي لا يوجد في القاموس اشتقاق من الفعل (قرض) وإنما الموجود (المقص) من (قصّ).

٦- أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره كقول عروة بن الورد العبسي :

قلت لقوم في الكنيف تروحوا + عشية بتنا عند ماوان رزّح

الكنيف أصله الساتر ومنه قيل للترس : كنيف غير أنّه استعمل في الآبار التي تستر لقضاء الحدث وشهرتها (قضاء الحاجة) .

٧- أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف . كقول ابن نباتة :

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم + ألا ان مغناطيسهن الذوائب

فـ(مغناطيسهن) كلمة غير مرضية .

٨- أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي كقول الشريف الرضي :

يولع الطلُّ بردينا وقد نسمت + رويحة الفجر بين الضال والسلم

والقسم الثاني : المركب ويشمل الألفاظ مع غيرها .

١- أن لا يكون في الكلمات حروف متقاربة

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما + كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

٢- أن لا يكون في الكلام تقديم وتأخير :

كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً + أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

*اعداد الدكتور مرتضى الشاوي